الأدب في معهد الآداب

أ . أحمد شرفي الرفاعي

أستاذ مكلف بالمحاضرات بمعهد الآداب واللغة العربية . جامعة قسنطينة

الأدب في معهد الاداب

الأدب بقدر ما هو" فكر جميل" لكونه رؤية شاملة وعميقة للانسان ومشكلاته وأحلامه وآلامه، فهو في الوقت نفسه حاجة من حاجاته النفسية والاجتماعية التي لا حياة له بدونها، ذلك أن الكامة الجميلة الطيبة قبل أن تكون الرسول المبجل إلى القلوب والضمائر والعقول ، فهي أداة تواصل وتفاعل بين الانسان والانسان ، وهي في الوقت نفسه أداة فكره ووجدانه وعالمه الذاتي الرحيب .

إن هذه الاهمية العالية للأدب يؤكدها دوره في التنويه بالمنجزات الحضارية ، وأثره في الحركات الفكرية والاجتماعية للشعوب ، ودوره البارز في مسار الأحداث الانسانية الكبرى، وذلك ماجعل الأمم والشعوب والأنظمة المتحضرة تُعْنى بالأدب والأدباء . فتبني للآداب المعاهد والكليات ، وتنشئ للأدباء المكتبات الضخمة والغنية بنفائس الآثار التاريخية ومأبدعته أقلام وقرائح الأدباء و المفكرين المعاصرين وتخصص للأدباء الجوائز المالية السخية و الأوسمة الرفيعة فضلا عما يتمتعون به من اعتبار مادي واجتماعي قدلايحظى به غيرهم من أعلام الحياة الاجتماعية، كل ذلك إنما هو تقدير للكلمة وقيمتها الفكرية و الفنية و الحضارية ، وتقدير لرجالها من بناة الفكر ومبدعي الأدب العظيم، ذلك هو وضع الأدب والأدباء في العالم بصورة عامة .

أما حال الأدب العربي في معاهد الآدب في وطننا الجزائر ومنذ الإستقلال - فهو يختلف بصورة جذرية عن كل الأعراف والتقاليد الأدبية و الثقافية المعروفة و المشار الى بعضها في الملاحظات السابقة إذْ حاله يشبه حال مولود معوق في أسرة لامعة ؟! اعتبره أهله كلاً عليهم وشؤما فأهدروا - لذلك - كرامته وإنسانيته ، ولم يعترفوا له بحق الأمل أو الحب أو القدرة على الحياة ، فعطلوا مواهبه وطاقاته ، ورفضوا مشاركته لهم في النشب و النسب ؛ وأقصى برهم به، عطف كاذب ، وحنو مزيف ، تفرضه

عليهم المناسبات و الأعراف ، ثم لايلقوا منهم بعد ذلك إلا الإحجاف و التنكر ، فهل الأدب العربي في جامعاتنا مولود معوق ؟! .

إن أزمة اللغة العربية وأبها في وطننا لها صلة مباشرة بالصراع الذي لم ينته بعدُ بين اللغة العربية وقيمها الفكرية و الحضارية من جهة ، وبين اللغة الفرنسية وقيمها الفكرية و الحضارية من جهة أخرى ؛ ذلك الصراع الذي تعود جذوره إلى أوائل عهد الإحتلال الفرنسي للجزائر ، حيث عمد المحتلون الفرنسيون - بحكم الإحتلال - إلى إحلال لغتهم الفرنسية محل اللغة العربية إداريا ، وسياسيا ، وثقافيا ، وتربويا ثم اعتبار اللغة العربية في الجزائر لغة أجنبية منذ ذلك الحين ! .

وبدل أن ينتهي هذا الوضع الإستعماري الظالم و الشاذ ، مع نهاية الإستعمار الفرنسي للجزائر سنة 1962 تكرس هذا الوضع الغريب المريب في إطار تربوي يتمثل في حركة التوجيه المدرسي التي يخضع لها التلاميذ في نهاية مرحلة التعليم المتوسط ، إذ يوجهون حسب معهدلاتهم إلى ثلاث شعب . الرياضيات ، العلوم ، القسم الأدبي حسب الترتيب التالي :

أ - شعبة الرياضيات: ويوجه إليها المتفوقون في معدلاتهم وبخاصة الرياضيات .

ب - العلوم ، ويوجه إليها الجيدون في العلوم خاصة و الذين لم يقبلوا في شعبة الرياضيات .

جـ - القسم الأدبي ، ويوجه إليه غير المقبولين في الرياضيات و العلوم ، مع العلم أن الرياضيات و العلوم كانت إلى عهد قريب تدرس كل موادها بالفرنسية.مع العلم أيضا أن المتفوقين في الرياضيات و العلوم متفوقون في اللغة العربية أيضا ، وأن الضعفاء في الرياضيات و العلوم ضعفاء في اللغة العربية لكن منهج الصراع ومنطقهم جعلا المتفوقه من نصيب اللغة الفرنسية وشعبها و الضعفاء من نصيب اللغة العربية وشعبها ...

إن هذا التوجيه غير التربوي و غير العلمي للتلاميذ نحو الشعبة الأدبية في مرحلة التعليم الثانوي كرسه وعمقه توجيه الطلبة الناجحة في بكالوريا الشعب العلمية

و التقنية الى معهد الآداب عندما يتعذر قبولهم في المعاهد العلمية و التقنية ، وذلك ما جعل المسجلين في معهد الآداب من الشعب العلمية و التقنية يعتبرون أنفسهم منكوبين لكونهم يدرسون تخصصا لم يعدوا لهم من قبل ...

إن الإدارة التي جنت على التلاميذ وعلى الطلبة وعلى الأدب العربي باسم التوجيه التربوي جنت أيضا على المجتمع الجزائري وعلى الإقتصاد الوطني عندما كونت أجيالا من الشباب تكوينا غير علمي ولا متجانس ثم رمت بهم إلى البطالة و الحيرة خاصة بعد إلغاء نظام التعاقد مع المدرسة العليا للأساتذة على علاقته وسلبياته .

إن التوجيه غير التربوي وغير النزيه في المرحلتين الثانوية و الجامعية حدد في الواقع مفهوما إداريا للأدب العربي و الثقافة العربية غير علمي و غير مقبول لكونه يقوم على أساس أن غير القادر على دراسة الرياضيات و العلوم في المرحلتين ، قادر بالضرورة على دراسة الادب العربي ؟! مع أن السبب الذي منع التلميذ أو الطالب من دراسة الرياضيات أو العلوم يمنعه أيضا من دراسة الأدب لأن دراسة الأدب العربي تتطلب بدورها قدرات ومؤهلات لابد أن تتوفر في التلميذ و الطالب ، وبدونها يتعذر عليه دراسة الأدب العربي .

إن المنطق السليم ، و التوجيه التربوي الصحيح من أسسهما الراسخة : النزاهة و احترام القيم العلمية دون محاباة أو تحيز ، وذلك مايلزم المعنيين بالأمر باعادة النظر في مفهومهم المزري بالأدب العربي و قيمه الفكرية و الجمالية والقائم بوضوح على اعتبارات غير تربوية و الاعلمية .

إن الإنصاف و النزاهة العلمية توجب على المعنين بالأمر رفع الحيف عن الأدب العربي في المرحلتين : الثانوية و الجامعية . وعلى أسرة الأدب في معاهد الآدب وغيرها يقع واجب إعادة الاعتبار للأدب العربي في ساحات الثانويات ورحاب الجامعات بتصحيح مفهوم الأدب العربي للمعنيين بالأمر ، و التأكيد لهم على أنه تخصص له قيمته الفكرية و الجمالية التي لايشاركه فيها غيره اطلاقا ، وأن ليس [وارث من لاوراث له]في الساحة الثقافية ، وعلى أسرة الأدب أيضا ويقع واجلب إعادة الإعتبار للأدب في واقع الحياة الإجتماعية وذلك بتحريره أولا من إعتبارات التشغيل وتوجيه

ثانيا نحو آفاق الإبداع و التطور الصادق الأصل ، و المواكبة الجادة لحياتنا و التفاعل مع مختلف قضاياها في إطار وظائفه الفكرية و الجماعية الراسخة ..... أحمد الرفاعي الشرفي .

1 - تزايد عدد الشعب العلمية و التقنية في المرحلة الثانوية ، لكن الأساس المجحف بالأدب العربي مازال قائما . وإزالته تقتضي انشاء قسم عام يوجه إليه غير الحاصلين على المعدلات الجيدة في علوم اللغة العربية ودون غيرهم ، ويمكن أن ستمر هذا التوجيه ويمتد الى المرحلة الجامعية ببعض الطلبة يوجهون الى معهد التاريخ أو الإقتصاد ووضعهم قريب جدا من وضع الموجهين الى معهد الأدب .ومع ذلك يبقى الفرق كبير جدا بين متطلبات دراسة الإقتصاد أو التاريخ أو الأدب ، وأعتقد أنه آن الأوان ليدرك الجميع أن إهمال احالة وجمالية النص في الأقسام العلمية المعربة ليست تعميما للتعريب بقدر ما هو تشويه لقيم الثقافة العربية . وإن المسؤلية مرة أخرى تقع على أسرة الأدب في معاهد الآداب أولا وقبل كل شيء .

***